# في أداء بيت المال حتى منتصف القرن الثالث الهجري

م.د.عادل عباس جسام
جامعـة تكريت/ كليـــة الآداب
قسم التـاريـخ

## مُقَدِّمَة

الباحثون في الدراسات التاريخية ومنهم المتخصصين في الدراسات التي تعنى بالاقتصاد الإسلامي على قلتهم في تناول بيت المال كمؤسسة تنتظم فيها مجمل الفعاليات المالية كالإيرادات والنفقات وفق صورتها النمطية والمعهودة دون يغوصوا في اعماقها لعرض وتبيان الجوانب الثانوية وغير الأساسية ووجود ومكان بيت المال والعقبات التي واجهها كالنهب والسرقة والتجاوز على المال العام الذي هو فيء لجميع الأمة ولا يجوز بأي حال من الأحوال لأي المساس به كان حتى وان كان من قبل مؤسسة الخلافة.

عمدنا أظهار ما خفي والتبس من خلال تتبعنا للنصوص التي وردت من رواتها الأولين مستخدمين منهجاً استدلالياً قائم على البحث والنظر والتحليل لأجلاء الصورة واستخلاص ما ورد فيها وعرضه.

لا يخفى أيضا النظم المالية والإدارية عند الفرس الساسانين كانت على مستوى متقدم من الدقة والتنظيم، ولعب بيت المال عندهم دورا بالغ الأهمية في التحكم بإيرادات الدولة الساسانية وفي الخصوص منها سوا العراق الذي كان محتلا من قبلهم ويدر اموالا طائلة لخزينة الدولة لما يتوفر عليه من خصوبة الأرض وتوفر المياه وتنوع المحاصيل، عند تحرير العراق على يد جيوش الفتح الإسلامي المبين

لم يجد المسلمون من بد في يعتمدوا معظم تلك النظم ومنها بيت المال، إلا أنهم سخروها بما يتلاءم والنهج الإسلامي.

لا ريب بيت المال في الدولة العربية الإسلامية بعد كرَّس وأُصَّل على يد الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) أسهم في تنظيم إيرادات الدولة في الخراج و الخمس، والفيء والعشور والجزية ثم توجيهها في أبواب الصرف والإنفاق كالعطاء والرزق وسد الثغور والصرف على المقاتلة في سجل محكم أطلق عليه (الديوان) في مركز الخلافة ترتبط معه بيوت الأموال وفي الأمصار والمدن والقصبات وفق آلية منظمة وصلت ذروتها أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان من ثم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بدأت بالضعف والانحلال في العصور العباسية اللاحقة وصارت بيوت الأموال خاوية وفارغة في الكثير من الأحيان للحد الذي لا تستطيع معه دفع جند بغداد العاصمة فقط لأسباب عدة سنعرج عليها في ثنايا بحثنا.

لم يكن بيت المال بمنأى عن التطورات السياسية التي تخللت تاريخ الدولة العربية الإسلامية، فهو كغيره من مؤسسات الدولة يؤثر ويتأثر ايجابا سلبا على خلفية الأحداث التي طرأت، فكلما كانت الدولة قوية ومرهوبة الجانب كان مستوى الأداء لمؤسسة بيت المال جيدا، وكلما ضعفت الدولة سواء في مركز الخلافة في الأمصار المختلفة نتيجة الاضطرابات حدوث الثورات مع ما يصاحبها من اختلا للأمن، نجد بيت المال يتأثر سلبا من تلك الأحداث ويصبح عرضة ً للنهب والسرقة بسبب ضعف سطوة الدولة واجتراء المجترئين عليها.

**أولا: - بيت المال**

يقول صاحب الأحكام السلطانية:( كل مال استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال، فإذا قبض صار بالقبض مضاف إلى حقوق بيت المال سواء أُدخل إلى حرزه لم يدخل، ٍ صرف في جهته صار مضافا إلى الخراج من بيت المال سواء خرج من حرزه لم يخرج)( ).

حفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج كلها مسطورة في كتاب شاهد في تفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال وسمي ذلك الكتاب الديوان( ).

وهو أي بيت المال الاصطلاح الذي أطلق على المؤسسة التي قامت بالأشراف على ما يرد من الأموال وما يخرج منها في أوجه النفقات المختلفة( ).

وقد أطلق على الخزانة لفظة(بيت المال) وهي التسمية العامة التي نجدها في جميع المصادر كما سميت أيضا (بيت مال المسلمين) وهي تبين الاتجاه الديني للأموال أما تسمية (بيت مال العامة) فنلاحظها في العصور المتأخرة، حيث استحدث بيت مال الخاصة ، وقد استخدم هذا التعبير للتفريق بين بيت المال بيت مال الخاصة والتسميتان الأوليتان كثيرا ما تردان في نص واحد للدلالة على نفس المسمى( ).

**ثانيا: - بيت المال عند الفرس الساسانين**

عند تقصينا للإحداث التي أوردها الروا الأولون لعصر ما قبل الإسلام وجدنا مؤسسة بيت المال كانت موجودة عند الأمم التي ارخ لها ومنها الدولة الساسانية ولا ريب مستوى التنظيم عندهم كان دقيقا لما يتوخوه من ضبط دواوينهم ليتسنى لهم جباية الضرائب وتسخيرها لضمان توظيفها في أبواب الصرف والإنفاق وتسيير أمور الدولة، فلا غروا والحالة هذه من اعتماد المسلمين بعد تم لهم تحرير الأراضي التي كانت بحوزتهم في سواد العراق وإسقاط امبرطوريتهم وعاصمتها المدائن من يعتمدوا نفس النظم بعد عدلوا فيها وبما يتلاءم والمنهج

الاقتصادي الإسلامي وفقا للشرع. وفي أكثر من موضع يرد مصطلح (بيت المال) عند الفرس فكان من دون الدواوين (لهراسب بن كيوجي) ملك الفرس الذي عمر الأرض اجتبى الخراج( ) وكان كيكو يعمل خازنا على بيت مال بهمن( ).

وفي إحدى المعارك بين الفرس الساسانين والروم ومعهم بعض العرب سار البطريق الروماني حتى وقع ببلاد فارس واستولى على مدينة طيسبون محلة سابور الأكتاف وظفر ببيوت أمواله وخزائنه فيها( ).

سهم بيت المال عند الفرس في رفد ومساعدة المحتاجين والمغصوبة حقوقهم بتعويضهم من بيت المال فقد أمر كسرى انشروا برؤوس المزدكية فضربت أعناقهم وقسمت أموالهم في أهل الحاجة بسبب دخولهم وتجاوزهم على حقوق الناس، وأمر كذلك بعيال ذوي الأحساب الذين مات قيمَّهم وجعل جهازهم من بيت المال( ) وأسلف كسرى أصحاب العمارات وأقرضهم مالا من بيت المال لتقويتهم( ).

ونجد في بعض المصادر أسماء الذين على بيت مال الفرس بالنهم وهم مهران الرازي والنخيرجان( ) ويبدو لنا لدى الفرس أكثر من بيت مال وربما وجد بيت المال في كل مدينة، إلا بيت المال الرئيسي يوجد عادة في العاصمة، فمثلا كان بيت مال ابرويز كسرى بمدينة (طيسبون) وسماه(بهار حفر خسرو)( ) واهتم الفرس الساسانيـ ن ببناء دور الرزق التي تعنى بتوفير المواد العينية كالحبوب والطعام وغيرها فقد كانت لهم مدينة رزق في منطقة(شوميا) في سواد العراق( )، ولم يتضح لنا ماهية تلك الموجودات ولمن كانت توزع إلا أننا نستنتج أنها كانت توزع على الجند.

**ثالثا: - بيت المال في صدر الرسالة والخلافة الراشدة**

لم يتوفر المسلمون الأوائل على بيت مال بالمعنى المتعارف عليه فالرسول(صلى الله عليه وسلم) كان يعطي الأموال بأول قسم بين المسلمي عن سو على سو بعد معركة بدر( ) ولم نجد ما يشير إلى وجود تلك المؤسسة في عهده ، ولم يكن في عهد الخليفة أبي بكر(رضي الله عنه) ديوان جامع وكان

المال الذي يأتيه يوزع أيضا أولا بأول، وترد إشارة إلى انه كان له بيت مال بـ (السنح)( )، يودع فيه الأموال المتبقية ولما تحول إلى المدينة جعل بيت المال في داره( ).

وكان أبو بكر(ﷺ) عفيفاً حريصاً، فعندما حضرته الوفاة : (انظرواكم أنفقت منذ وليت من بيت المال فاقضوه عني، فوجدوا مبلغة ثمانية ألاف درهم)( ) تولى عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) الخلافة بعد وفاة أبي بكر(ﷺ) سنة( هـ) وحدثت انعطافة تاريخية عدت مفصلاً رئيساً من مفاصل تطور الدولة وذلك باستحداث وتطوير المؤسسات المالية والإدارية والاقتصادية للدولة العربية الإسلامية ذلك المسلمين ابتدأ عمليات الفتح الواسعة منذ تلك السنة، وابتدأت فتوحات العراق السنة الثانية عشرة للهجرة( )، وانساحت جموع الفاتحين في مشهد يخلق بنا نتأمله ونستشرفه في وقتنا الراهن لنستلهم منه العبر: (وجعل يفيض على الأمم والملوك، فكان أهل مصر يتدفقون على الأجل وأهل مكران على راسل وداهر، وأهل سجستان على الشاه وأهل خراسان والباب على خاقان ، فكفكفهم عمر إبقاء على أهل الإسلام، ولو خلى سربهم لبلغوا كل منهل)( ).

وفي سنة للهجرة دون عمر(ﷺ) الدواوين، وفرض للمسلمين الفروض، وأعطى العطايا على السابقة، وهو أول من دون للناس في الإسلام( ).

وبمشورة علي بن أبي طالب(ﷺ) كتب الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) التاريخ وذلك، في سنة للهجرة لسنتين ونصف من خلافته فكتب لست عشرة من الهجرة( ).

وبعد أن فتحت الكوفة اختطها سعد بن أبي وقاص للمسلمين وبنى دارا فيها وبحياله طريق منقب مائتي ذراع وجعل منها بيوت الأموال( ).

ويحصل تعوض الدولة الأفراد بدلا عن أراضي عقارات صادرتها لدواع دينية مثلا، كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) سنة سبع عشرة للهجرة حين بني المسجد الحرام في مكة ووسع فيه وأقام فيها عشرين يوما، وهدم على أقوام أبوا

يبيعوا دورهم لأجـ التوسعة، فوضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها( ).
وحصل نفس الشيء مع الخليفة عثمان بن عفان(ﷺ) سنة ست وعشرون للهجرة، حين وسع المسجد الحرام وابتاع من قوم فأبى البعض ووضع الأثمان في بيت لمال( ) ونستنتج بيت المال هو بمثابة الخزانة الرسمية بها توضع حقوق الناس المستحقة على الدولة كي لا تضيع.

ويبدو اختيار وظيفة العامـ على بيت المال هي من اختصاص الخليفة في أول الأمر ففي سنة للهجرة ولي عبد الله بن مسعود على بيت مال الكوفة من قبل الخليفة( ). ﷺ

وكان ابن أبي كرب عاملا على بيت المال في عهد الخليفة عثمان(ﷺ)( )
وأعقبه عقبة بن عمرو عاملا على بيت المال أيام الخليفة عثمان(ﷺ)( ) وأعقبه زيد بن ثابت الذي تولى الديوان وبيت المال في عهده الخليفة عثمان(رضي الله عنه)( )، وكان ابن أبي رافع خازنا لبيت مال المسلمين للخليفة علي بن أبي طالب(ﷺ)( ).

لم تقتصر محتويات بيت المال على النقد فقط بل تعدتها إلى أنها المكان الذي توضع فيه المواد العينية مثل الحبوب والطعام والخل والعسل وغيرها من المواد الغذائية التي تدخل في العطايا المقاتلة، فقد استأذن الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) حين اشتكى شكوى ونعت له فيها العسل، وفي بيت المال عكة منه، فقال: أذنتم لي فيها أخذتها وإلا فهي علي حرام( )، ذلك انه الخليفة عمر(رضي الله عنه) يؤكد على(القوة في مال الله وجمعه حتى جمعناه وضعناه حيث أمر الله)( ).

وذكر الخليفة عمر(ﷺ) رد هدايا أهدتها امرأة ملك الروم لأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) وهي تحته إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها( ).

ولبيت المال وظيفة أخرى في عهد الخلافة الراشدة وهي الإقراض فقد كان الخليفة عمر(ﷺ) يستقرض من بيت المال إلى يأتي عطاؤه فيقضيه( )، وقام هند بنت عتبة إلى الخليفة عمر(ﷺ) فاستقرضته من بيت المال أربعة لاف تتجر فيها وتضمنها، فأقرضها، فخرجت بها إلى بلاد كلب فاشترت وباعت وردت المال إلى بيت المال ( ) واستقرض سعد بن أبي وقاص مالا من بيت مال المسلمين في الكوفة( ).

وكان الخليفة عمر بن الخطاب(ﷺ) شديدا في محاسبة عماله، فقد استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه مال، فقال: ما هذا يا عتبة؟ قال: مال خرجت به معي وتجرت فيه فقال: ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه! فصيره في بيت المال( ).

وكان أيضا يشاطر عماله ويقاسمهم نصف أموالهم ويجعلها في بيت المال( ) وشاطر سعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة أمواله، فأخذ نصف لبيت مال المسلمين وأعطاه نصفا( ).

ولم يحدث نهبت بيوت المال حتى خلافة علي بن أبي طالب(ﷺ) وترد عملية نهب حين خرجت عبد ألقيس وكثير من بكر بن وائل فنهبوا بيت مال البصرة بعيد معركة الجمـ ( )، في حين أجار صبرة بن شيمان الحداني وهـ أحد رجالات البصرة زياد بن أبي سفيان عامل الخليفة علي (ﷺ) أجاره بيت مال المسلمين وحمله إلى داره وذلك سنة هجرية( ).

**رابعا: - بيت المال في العصر الأموي**

استحدث الخليفة معاوية بن أبي سفيان بيت مال خاصا به عندما استصفى ألصوافي وجعلها خاصة له فدرت عليه خمسة ملايين درهم من ارض الكوفة فقط، وصالح معاوية الحسن بن علي في إحداث سنة أربعين للهجرة بان جعل له ما في بيت مال الكوفة وكان فيه خمسة ألاف ألف مقابل يدخل في طاعته( ) فضلا عن خراج (دارا بج ) ضمن أعمال البصرة ما حد بأهالي البصرة حالوا بين الحسن بن علي وخراج (دارا بجرد)، وقالوا فيئنا( ).

قيل الخليفة معاوية بن أبي سفيان أوصى عندما حضرته الوفاة بنصف ماله يرد إلى بيت المال ( )، وتقول بعض المصادر انه ترك خمسون ألف ألف درهم من أموا الأراضي التي اصطفاها لنفسه( ).

استمرت حالات التسليف والإقراض في العصر الأموي وتوسعت وشملت بعض الأمصار وليس في بيت مال العاصمة الرئيسي في دمشق فحسب بل في مدن أخرى ففي مدينة سجستان مثلا، قسم عباد بن زياد وكان واليا عليها للخليفة يزيد بن معاوية ما في بيت المال في عبيده وفضل فنادى مناديه :(من سلفا فليأخذ ، فسلف من أتاه)( ).

وزادت عمليات النهب والسرقة لبيوت الأمـ ال بالقياس بما سبقها ، فكلما حدثت اضطرابات ثورة منازعات فان بيت المال يصبح عرضة للخطر، سنورد أكثر من نص لتأكيد تلك المسألة، فقد كان في بيت مال البصرة سنة أربع وستين للهجرة أيام عبيد الله بن زياد قبل خروج سلمة بن ذؤيب عليه ثمانية ألاف ألف اقل فقال للناس:(هذا فيئكم، فخذوا أعطياتكم ذراريكم منه وأمر الكتبة بتحصيل وتخريج الأسماء، واستعجل الكتاب بذلك حتى وكل بهم من يحبسهم من بالليل في الديوان، وأسرجوا الشمع فلما صنعوا ما صنعوا قعدوا عنه، وكان من خلاف سلمة عليه ما كان، كف عن ذلك ونقلها حين هرب، فهي إلى اليوم تردد في

ل زياد فيكون فيهم العـ المأتم فلا يرى في قريش مثلهم، ولا في قريش أحسن منهم في الغضارة والكسوة)( ).

وكان عبد الله بن الحارث الملقب(ببة) قد تناول في عمله على البصرة أربعين ألف من بيت المال، فاستودعها رجلا، فلما قدم عمر بن عبيد الله أميرا أخذه فحبسه حتى اغرمه إياها وسأل بعد ذلك فقال: ( تبعة المال أهـ من تبعة الدم)( ).

وثار يزيد بن أبي النمس الغساني بأهل دمشق في عبيدها فغلب عليها وعلى الخـزائن وبيـت المـال، وبـايع لمـروان بـن الحكـم وأمـ ه بهـا وهـو بالجابيـة سنة للهجرة( ).

وحين ثار المختار بن أبي عبيد الثقفي فانه أصاب تسعة ألاف ألف وجدها فـي بيـت مـال الكوفـة، ووضـع علـى بيـت مـال الكوفـة عبـد الـرحمن بـن شـريح الشبامي( ).

وانهب سليمان بن هشام ما كان في بيت مال دمشق وقسمه فيمن معه من الجنود وخرج من المدينة غداة دخول مروان بن محمد إليها سنة للهجرة( ) وقيل إبراهيم بن عبد الله لما ظهر بالبصرة وجد في بيت المال ستمائة ألف فقوي بـذلك وفـرض لجماعتـه خمسين خمسين( ). ويذكر الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي استعمل حكيم بن حارث الازدي على بيت المال( ).

ويحصل عند الفتوحات عدم أنشاء بيت المال إلا يستقر الفاتحون ويقومون بعدها بإنشاء مراكز الحكم ومؤسساته ومنها بيت المال ذلك ان الدولة الإسلامية اتبعت نظاماً لا مركزياً في سياستها المالية فقد غزا المفضل بن المهلب باذغيس، ففتحها وأصاب مغنما فقسمه بين الناس ولم يكـ لـه بيت مال، فكان يعطي الناس كلما جاءه شيء أولا بأول وكما فعل الرسول(صلى الله عليه وسلم) وأبا بكر(رضي الله عنه) في وقتهما( ).

وكان من الأمراء في الدولة الأموية من لا يعطي إلا النزر اليسير ومنهم عدي بن أرطأة كان لا يعطي لأهل البصرة إلا درهمين ويقول: (لا يحل لي

أعطيكم من بيت المال درهما إلا بأمر الخليفة يزيد بن عبد الملك، ولكن تبلغوا بهذا حتى يأتي الأمر في ذلك)( ).

في حين كان الخلفاء يكثرون من العطايا والمنح، فهذا الخليفة هشام بن عبد الملك على ما عرف عنه من الشح والبخل قال لمقاتل بن حيان حين بشره بفتح المسلمين في حربهم مع خاقان الترك قال: (حاجتك، قال: يزيد بن المهلب أخذ من أبي حيان(يعني والده) مائة ألف درهم بغير حق، فقال له الخليفة، هشام: لا أكلفك شاهدا، أحلف بالله انه كما قلت، فحلف، فردها عليه من بيت مال خراسان، وكتب إلى خالد ألقسري(أمير العراق خراسان) يكتب إلى عامله على خراسان أسد ألقسري، فكتب إليه فأعطاه أسد مائه ألف درهم فقسمها بين ورثه حيان على كتاب الله وفرائضه( ).

استطاع الأمويون تمتين مؤسساتهم الإدارية ودواوينهم وصار المثل يضرب بها حتى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قال: (والله لوددت إني وجدت مثل الحجاج حتى استكفي أمري)( )، فنرى الديوان في الأقاليم والأمصار مرتبط بالديوان الرئيسي في دمشق، وكانت تجري المناقلا المالية بناء على الكتب يتم إضافتها أو تنزيلها من الذمة لمالية كما حدث في النص السابق لمقاتل بن حيان، انه اخذ أمرا من الخليفة باستلام المائة ألف من بيت مال خراسان وتم إعطاؤه المبلغ ومن المؤكد تم تأشير ذلك في سجلاتهم لغرض التدقيق في نهاية (السنة المالية) ومطابقة المصروفات مع الواردات مع الديوان الرئيس في مركز الخلافة.

وفي نفس السياق فقد كتب يوسف بن عمر وهو أمير العراق وخراسان لعامله على خراسان نصر بن سيار: (انه قد أمر المغراء بن أحمر بالبقاء معه وانه قد حول اسمه لديوانه يقصد ديوان العراق في واسط وان يشخص أهله إليه( )، بمعنى حذفه من ديوان خراسان ونقل راتبه وعطاؤه ورزقه إلى واسط.

وقد جمعت دواوين بني مروان، فلم يرد ديوانا اصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان الخليفة هشام( ) (ولم يكن احد من بني مروان اشد نظرا ولا

اشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام)( )، فكان الخليفة هشام بن عبد الملك مبالغا في الحساب في الأنفاق معنى بالتدبير على قواعد الاقتصاد( ).

وتأكيدا على ما سبق فان الخليفة هشام بن عبد الملك أمر بخمسمائة درهم فقط للشاعر علياء بن منظور أللبثي والحق له عيلا( ) في العطاء وقد انشده:

**إنا أناس ميت ديواننا ومتى يصبه ندى الخليفة ينشر**( ).

ولم نستطع نتبين ماهية الخمسمائة درهم هل هي مقطوعة هي زيادة على راتبه الشهري عطائه، فإذا كانت مقطوعة نستطيع نجزم بأن هشاما كان شحيحا، بالمقارنة مع ما أعطاه بعض الخلفاء العباسيون بعدئذ حين أغدقوا العطاء وأجزلوا الهدية وسنرى ذلك حين نتناول العصر العباسي في بحثنا هذا.

خامسا: - بيت المال في العصر العباسي حتى منتصف القرن الثالث الهجري

استمر العمل على تصريف الأمو المالية للدولة العربية الإسلامية في عصرها العباسي مناطا بمؤسسة بيت المال سواء في مقر الخلافة في فروع تلك المؤسسة في الأقاليم والأمصار، وربما زاد الاهتمام بها من خلال استحداث دواوين جديدة، ولعل تأسيس بيت ما المظالم في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور وإنشاء ديوان الأزمة في عهد المهدي يؤكدان ذلك التوجه.

وكان الخليفة المنصور لا يولي أحدا ثم يعزله إلا ألقاه في دار خالد البطين – وكان على شاطئ دجلة - فيستخرج من المعزول مالا فيكتب عليه أسم من أخذ منه وعزل في بيت مال وسماه بيت مال المظالم، فكثر ما في ذلك البيت من المال والمتاع( ).

وكان ولاة البريد في الأفاق كلها يكتبون إلى لخليفة المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأد وبسعر كل مأكول وبما يرد بيت المال من مال، فإذا الأسعار على حالها أمسك، وان تغير شيء منها عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك، وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره، فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله( ).

يعد الخليفة المنصور المؤسس والمثبت الفعلي لأركان الدولة العباسية كان سياسيا فـ وإداريا من طراز فريد ومحاسباً ودقيقاً وعادلاً وحازماً، ولعلنا لا نجافي الحقيقة قلنا انه تفوق على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في إدارته للدولة العربية الإسلامية.

ويذكر انه ولى رجلا من أهل الشام خراج الشام، فأوصاه وتقدم إليه فقال: ما اعرفني بما في نفسك الساعة ياأخا أهل الشام، تخرج من عندي لساعة، فتقول: ألزم الصحة يلزمك العمل( ) وولى رجلا من أهل العراق شيئا من خراج السواد، فأوصاه وتقدم إليه، فقال: ما اعرفني بما في نفسك: تخرج لساعة فتقول: من عال بعدها فلا اجتبر، اخرج عني وامض إلى عملك فو الله لئن تعرضت لذلك لا بلغن من عقوبتك ما تستحقه: فوليا جميعاً وصححاً وناصحاً( ).

وكان يقول: ما أحوجني إلى صاحب خراج يستقضي ولا يظلـ الرعية فاني عن ظلمها غني، وجعل المنصور على بيت المال في بغداد أبو حارثه النهد ( ).

وبلغ من حـ صة ودقته وشدته في الدولة عزل أخيه العباس عن الجزيرة وغرمه وذلك سنة هـ ( ) وألزم المنصور خالد بن برمك ثلاثة ألاف ألف( ).

وكتب صاحب أرمينية إلى الخليفة المنصور: الجند قد شغبوا عليه وكسر أقفال بيت المال، واخذوا ما فيه، فوقع في كتابه، اعتزل عملنا مذموما، فلو عقلت لم يشغبو، ولو قويت لم ينتهبو ( ).

إلا هذا لم يمنعه من يكون رحيماً عفواً، دعا بعامل من عماله قد كسر خراجه فقال له: أد ما عليك، قال: والله ما املك شيئا، ونادى المنادي، اشهد لا اله إلا الله، قال يا أمير المؤمنين ، هب ما علي لله ولشهادة لا اله إلا الله ، فخلى بسبيله( ).

وحرص الخليفة المنصور على إشراك الأهالي والرعية في المشاريع التي من شأنها تحسين أوضاعهم وذلك من خلال إلزامهم جميعا بمبالغ محدودة للإسهام في

تلك المشاريع وبالتالي التخفيف من الأعباء المالية لبيت المال في خطوة اقرب ما تكون إلى التوجه الرأسمالي الحديث من خلال فرض الضرائب وتقديم الخدمات كالبنى التحتية والأعمار، فقد جعل الخليفة لمنصور ما انفق على سوري وخندقي البصرة والكوفة من أموال أهلها( )، وذكر انه لما بناء سور الكوفة وبحفر خندق لها أمر بقسمة خمسة دراهم على أهلها بذلك علم عددهم، فلما عرفهم أمر بجبايتهم أربعين درهما من كل إنسان، فجبوا ثم أمر بإنفاق ذلك على سور وخندق الكوفة فقال شاعرهم( ):

**يا لقومي ما لقينا من أمير ألمؤمنينا**
**قسم الخمسة فينا وجبانا الاربعينا**

أثمرت السياسة المالية التي انتهجها المنصور في تعزيز ميزانية الدول وغناها وله الفضل في تعزيز وتوطيد أركان الخلافة العباسية فلا غرو والحالة هذه ممن خلفوه جدوا كل مستلزمات ومقومات الدولة القوية فقد أوصى المنصر ر ابنه المهدي قائلا : ( انظر هذه المدينة يعني بغداد - فايا تستبدل بها، فأنها بيتك وعزك، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً)( ).

عرف عن المنصور التدبير والكفاية ولا يضع فلسا إلا في موضعه ولا يميل إلى التبذير سواء في حياته الخاصة كونه خليفة، فقد وجد في خزائنه في الكتب انه انفق على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والخنادق وقبابها والأبواب ما قيمته أربعة ألاف ألف وثلاثة وعشرون ألف فلس( )، ونستنتج من هذا النص مدى التنظيم والدقة في تبويب وتسجيل أوامر الصرف والإنفاق كل في محله.

ويذكر انه اشتري لأبي جعفر المنصور ثوبين لينين بعشرين ومائه درهم( )
كان يخيط الثياب الخلقان ويقول لابنه المهدي انه لا جديد لمن لا يصلح خلقه، هذا الشتاء حضر ونحتاج إلى كسوة للعيال والولد( ) إلا هذا لا يمنع من إنفاقه على

الجيوش عند الملمات فقد انفق على جيش يزيد بن حاتم حين وجهه إلى إفريقيا لقتال الخوارج ثلاثة وستين ألف ألف درهم( ).

وحين ولي المهدي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة للهجرة، فانه قسم ثلاثين ألف ألف درهم في أهل مكة والمدينة وذلك في سنة للهجرة، وكسا الكعبة كسوة جديدة( ) وأمر ببناء القصور في طريق مكة واتخذ المصانع في كل منهل، وأمر بتجديد الأميال والبرك( ) وكان من حمل إليه الثلج إلى مكة من الخلفاء( ).

ووضع الخليفة المهدي سنة للهجرة دواوين الأزمة( )، وولى عليها عمر بن بزيغ مولاه، فولى عمر زمام خراج العراق للنعمان بن عثمان( )، وتولاها بعد عمر بن يزيغ علي بن يقطين( ).

ويجب نذكر بيت مال المدينة انتهب سنة للهجرة زمن الخليفة المهدي وكان به سبعين ألف دينار( ) وأجاز الخليفة المهدي الشاعر مروان بن أبي حفصة سبعون ألف درهم لقوله :

**أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام**

فقال:

**بسبعين ألف راشني من حبائه وما نالها في الناس من شاعر قبلي**( )

وظهر في العصر العباسي ما يطلق عليه بمال البيعة ولم نعرف فيما كان يعطي من بيت المال الرسمي العائد للدولة من بيت مال الخاصة فقد شغب الجنود حين توفي المهدي بماسباذان، ولعل هذه الحادثة تعد بداية لأحداث شغب تتكرر على الدوام حتى سقوط دولة الخلافة العباسية وسار الجند إلى باب الربيع فاحرقوه وطالبوا بالأرزاق وضجوا فأعطوا لسنتين فسكتوا( ).

وفي سنة للهجرة حج الخليفة هارون ، فأعطى أهل الحرمين عطاء كثيراً، وقسم فيهم مالاً جليلاً( ).

وفي عهد الرشيد تبين النفقات العامة والخاصة أُنيطت للفضل بن الربيع، ما يشي بحصول تداخل في المال العام والخاص( ).

وصادر الخليفة الرشيد ما وجد للبرامكة من مال وضياع ومتاع( ) واستصفى كذلك أموال علي بن عيسى بن ماهان بعد عزله عن خراسان فبلغت ثمانين ألف ألف درهم، وقيل خزائنه وردت إلى بغداد على ألف وخمسمائة بعير( ).

وبعد كان الأمويون يؤدون اموالا إلى الروم سنويا وفق إتفاق الهدنة، نجد الرشيد فرض على نقفور إمبراطور الروم يحمل سنويا إلى خزانة بيت المال في بغداد ثلاثمائة ألف دينار( ) مات الخليفة هارون الرشيد وفي بيت المال تسعمائة ألف ألف ونيف ( ).

ونجد ظاهرة نهب بيوت الأموال تتكرر وعلى مراحل متباعدة من تاريخ الدولة الإسلامية، ويمكن تندرج هذه الظاهرة ضمن أطار حالات الثورة والعنف والاضطرابات التي تظهر هنا هناك ضمن مسار الدولة وحالات ضعفها في أماكن أخرى، ففي سنة للهجرة نقب ق من اللصوص بيت المال الذي في دار العامة في بغداد واخذوا اثنين وربعين ألفا من الدراهم وشيئا من الدنانير( ) وكذلك حدث نفس الشيء في بيت مال الكوفة أبان ظهور يحيى بن عمر ألطالبي أيام الخليفة المنتصر بالله فوضع يده على ألف دينار وسبعون ألف درهم( ).

وربما عقد الخليفة لرجل واحد كل بيوت الأموال في الأفاق، كما فعل الخليفة المتوكل حين عقد لابنه المعتز خزن بيوت الأموال في جميع الأفاق وضم له كل دور الضر وأمر بضرب اسمه على الدراهم( )، وتولى بشر الخادم بيت مال الخليفة المنتصر( ).

ويحدث تخلو بيوت الأموال من أية نقود، كما حصل في العهود اللاحقة من تاريخ الدولة العباسية، فيأمر الخليفة بإعطاء الناس لكنه لا يجد ذلك في بيت المال، فعندما أخرج الأتراك المعتز من السجن بسامراء بايعوا له بالخلافة، وأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة، لم يتم المال فأعطوا شهرين(مال البيعة)، حدث ذلك سنة للهجرة أيام الخليفة المستعين الذي خلف بسامرا وفي بيت المال الذي كان

من ناحية الموصل من مال الشام نحوا من خمسمائة ألف دينار، في حين كان في بيت مال المستعين قيمة ألف ألف دينار، وفي بيت مال العباس بن المستعين قيمة ستمائة ألف دينار( ).

ودفعت سعاد ألف ألـ دينار للمؤيد حتى يكلم الخليفة المعتز كي يرضى عن أخيها وصيف التركي فرضي عنه ور له ضياعه( )، ولم تزل تباع خزائن قبيحة المعتز متصلاً ببغداد وسامرا عدة شهور حتى نفذت، وكانت لديها اموالاً عظيمة( ).

من خلال ما تقدم نرى بيت مال الخاصة صار يحوي من الأمو أكثر ما يحويه بيت مال العامة وصارت تلك الظاهرة هي الغالبة ذلك نفوذ الأتراك في مؤسسة الخلافة أسهم في إضعافها شيئاً فشيئاً وخوى بيت المال العام وانحسرت الأموال في يد بعض المتنفذي من العائلة والقادة الأتراك ما أسهم بشكل حاد في تردي الأوضاع المالية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية للدولة الإسلامية.

## الخاتمـــة

كنا قد تناولنا في بحثنا هذا الجذور التاريخية لمؤسسة بيت المال فوجدنا إن بيت المال تعود جذوره إلى الأمم التي سبقت الإسلام ومنها الدولة الساسانية، إذ كان على مستوى عال من التنظيم والكفاءة لا غضاضة إن عمل به المسلمون بعدئذ وفقا للشريعة الإسلامية ومنهاجها السمح.

ولم يكن لبيت المال وجود في صدر الرسالة، وكان رسول الله(صلى الله عليه وسلم) يأتيه المال ويقسمه أولا بأول، وكذا الحال في خلافة أبي بكر(ﷺ) مع وجود شارات من توفره على بيت مال بسيط لا يحوي سجلات بالدخل والخرج وضعه في بيته أول الأمر ثم نقله إلى داخل المدينة.

وبعد إن انساح المسلمون في فتوحاتهم الخالدة وتحرير الأراضي العربية المغتصبة كالعراق والشام ومصر تطلب الأمر تفعيل تلك المؤسسة التي كانت أصلا موجودة وتم تنظيمها وفق سجل أطلق عليه(الديوان).

حاولنا إن نظهر الجوانب غير المعتادة في مسيرة بيت المال وما تعرض لها من تحديات وتجاوزات ضمن إحداث الشغب أو الثورات التي طرأت على مسيرة الدولة العربية الإسلامية، وعرضنا أيضا حالات النهب والسرقة التي تعرض لها بيت المال، وكيف تعامل الخلفاء مع مؤسسة بيت المال فأشرنا حالات خرق وتجاوز على المال العام سواء من قبل مؤسسة الخلافة أم الأمراء والعاملين في الأمصار المختلفة، فكلما كانت الدولة قوية ومرهوبة الجانب فان بيت المال يصبح بمنأى عن التجاوزات ويصبح أداءه فعالاً وسلساً وكلما ضعفت الدولة نتيجة الثورات الاضطرابات فانه يتأثر سلبا وتقل فاعليته ويصبح عرضةً للمخاطر كالنهب السرقة، وتلمسنا ذلك من خلال النصوص التي أوردناها التي تعزز ما ذهبنا إليه.

وعسى إن نكون قد وفقنا في بحثنا المتواضع هذا من إجلاء بعض ما خفي وإبراز ما هو ايجابي مع عدم إغفالنا بعرض الهنات هنا أو هناك توخيا للدقة والموضوعية إيمانا منا بأصالة تراثنا الإسلامي وانفتاحه على كل الحضارات التي سبقته وتفاعله معها بما يؤطر تلك المسيرة الطويلة والخلاقة ومن الله التوفيق.

# الهوامش

- الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب( هـ) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (بيروت، دار الكتب العلمية، ) .
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد( هـ)، المقدمة،(بيروت، دار صادر، . ) .
- الدجيلي، خولة شاكر، بيت المال(نشأته وتطوره من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري، بغداد ، مطبعة وزارة الأوقاف .
- المرجع السابق نفسه، ص .
- الطبري، محمد بن جرير( هـ)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، (مصـ دار المعارف، ) .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- السنح: إحدى محال المدينة كان بها منزل أبي بكر(رضي الله عنه)، ياقوت، أبو عبد الله الحمري( هـ) معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، ) .
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري( هـ)، الطبقات الكبرى، اعد فهارسها رياض عبد الله، (بيرو أحياء التراث العربي، ) .
- الطبري، تاريخ، ج .
- . .
- . - .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- الطبري، تاريخ، ج .
- . .
- . .

- . .
- . .
- . .
- . وينظر، ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله ( هـ)، فتوح مصر وأخبارها، (بغداد، مطبعة المثنى،د. ) .
- . .
- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج .
- الطبري، تاريخ، ج .
- . .
- . .
- . .
- . .
- المقدسي، مطهر بن طاهر ( هـ)، البدء والتاريخ، نشر كلمان هوار،(شالون) .
- الطبري، تاريخ، ج .
- . .
- . . وينظر، ابن عبد ربه، أبو عمر احمد بن محمد الأندلسي ( هـ)، العقد الفريد، تحقيق احمد الزين وإبراهيم الابياري، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، .
- . . وينظر البلاذري، احمد بن يحيى ( هـ)، انساب الأشراف (بغداد، مكتبة المثنى، د. )
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . ؛ الاعظمي والكبيسي، عواد مجيد، حمدان عبد المجيد، دراسات في الاقتصاد العربي الإسلامي (بغداد، مطبعة التعليم العالي، ) .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- فلها وزن، يوليوس، سقوط الدولة الأموية نقله عن الألمانية محمد عبد الهادي أبو ريدة ، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ) .
- العيل: الزيادة في العطاء. ابن الأثير، مجد الدين أبي لسعادات الجزري( هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي، محمد الطناحي، القاهرة أحياء الكتب العربية، د. ) .
- الطبري، تاريخ، ج .
- . .
- . .
- . .

- . - .
- . - .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- الأزمة: أي يكون لكل ديوان زمام: وله رجل يضبطه. ابن الاثير، النهاية، ج .
- الطبري، تاريخ،ج .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- ينظر الطبري، تاريخ، ج .
- . .
- ينظر الطبري، تاريخ، ص .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .
- . .